الرجل الذى كره الملك

مات يزيد وجنده تحاصر مكة ، وعبد الله بن الزبير يقود معركة الدفاع عنها ..

جاءت الانباء لابن الزبير بما حدث ، فصاح فى الجيش الذى يقاتله :

ــ ان طاغيتكم قد هلك ، فمن شاء منكم ان يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل (أى يبايعونه بالخلافة) ومن كره فليلحق بشأمه ..

وفى الصباح نادى ابن الزبير قائد الامويين الحصين بن نمير يفاوضه ، فدنا منه بفرسه ، وبينما الخيل واقفة والرجلان فوقها يتحدثان ، أقبل حمام يلتقط من الارض تحت الخيل وابن نمير يحذر ان يطأ الحمام بسنابكه . قال له ابن الزبير :

ــ أتتحرك من قتل حمام الحرم وتريد ان تقتل المسلمين .

فرد

ــ لا لا أقاتلك . اذن لنا نطف بالبيت وننصرف عنك ..

ففعل ، وانصرف الجيش عائدا الى الشام .

وأقبل الناس فى الحجاز يبايعون عبد الله بن الزبير

أما فى دمشق فقد اختلف الناس ، وعلموا أن معاوية بن يزيد بن معاوية كاره فى الخلافه .

obeikandi.com

وأما فى البصرة ، فقد طمع عبيد الله بن زياد فى الامر وطلب البيعة لنفسه حتى تأتيه أنباء دمشق بالاتفاق على خليفة .

وتوالى رسل عبد الله بن الزبير على الكوفة وعلى البصرة يطلبون له البيعة ، ووجدوا من يسمع لهم ، وأرسل ابن الزبير من قبله واليا الى مصر ، فطرد واليها الاموى مروان بن الحكم الى الشام .

وكانت دمشق فى تلك الفترة تغلى كالمرجل ، ومعاوية الثانى ابن يزيد يرفض ولاية الامر ، وهو بعد رجل عليل مريض .. ولما اشتد الخلاف ذهب الى المسجد ، ودعا الناس وخطب فيهم قائلا :

« انى قد نظرت فى أمركم ، فضعفت عنه . فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه أبوبكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها . فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم .

ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس حتى مات بعد أربعين يوما من وفاة أبيه .. قيل مات مسموما ، وقيل مات مطعونا ..

وهنا نجد عبيد الله بن زياد يهبط دمشق فجأة فيجد بيعة ابن الزبير امتدت حتى وصلت الى الاردن وفلسطين ، ووجد مروان بن الحكم فى دمشق يوشك بدوره ان يذهب الى عبد الله ابن الزبير يبايعه .

فظل ابن زياد يقوى من صلب مروان شيخ الاموين حتى رضي أن يكون خليفة .

ومروان هذا هو صاحب عثمان بن عفان ، الذى ثارت الثورة على الخليفة الثالث من أجله ..

ومضى مروان وقد حصل على بيعة من نصف مدينة ، فأخذ يقوى أمره بالحيلة .. وكان جيش الشام قد انقسم عليه نصفه المغربى ضده ونصفه اليمنى معه ..

وفى مرج راهط تقابل جند الشام من الفريقين فى معركة فاز فيها أصحاب مروان .. ثم مضى الى مصر التى طرده منها والى ابن الزبير فاستردها

وبعد ان اطمأن مروان الى هذه الجبهة ، عاد الى الشام لينظر فى أمر العراق ، وأمر الحجاز ..

وكان عبد الله بن الزبير قويا فى مراكزه بالحجاز ، فهزم قوة الامويين .

ولم يطل حكم مروان فقد قتل .. قتلته زوجته ، وكانت من قبله زوجة ليزيد .. أرادت ان تضمن الملك لابنها ، فلما كان الليل وضعت وسادة على وجه زوجها مروان ، وجلست عليها حتى اختنق مروان ومات ..

obeikandl.com

عبدالملك .. حكيم بني أمية

تولى بعد مروان ، أبنه عبدالملك . والامويون مكروهون فى كل مكان ، ودم الحسين والسبعين من آل بيته الذين ذبحوا فى كربلاء يلطخ أيديهم ووجوههم .

ولكن كان من حظ هذا البيت ان تولى أمره فى هذا الوقت العصيب عبد الملك بن مروان . فقد كان فى كامل قوته وصحته .. اذ تولى الامر وهو ابن خمسة وأربعين سنة .. ولم يكن مسرفا على نفسه ولا متبذلا شأن يزيد بن معاوية .. ولقد استمر حكمه عشرين سنة وسنة صنع فيها الكثير .

بدأ يصطفى له بطانة من عقول ناصحة ، وافهام ناضجة .. قال لصاحبه « الشعبى » ..

« يا شعبى .. لا تساعدنى على ما قبح . ولا ترد على الخطأ فى مجلسى (أمام الناس) ، ولا تكلفنى جواب التشميت والتهنئة ، ولا جواب السؤال والتعزية (الرد على المجاملات) . ودع عنك كيف أصبح الامير وكيف أمسى . وكلمنى بقدر ما أستطعمك (اصغى اليك) واجعل بدل المدح لى صواب الاستماع متى . **واعلم ان صواب الاستماع أكثر من صواب القول** . واذا سمعتنى أتحدث ، فلا يفوتنك منه شىء . وأرني فهمك من طرفك وسمعك . ولا تجهد نفسك فى نظرية

صوابى . ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى . فان أسوأ الناس حالا من استكد الملوك بالباطل . وان أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم . وأعلم يا شعبى ان أقل من هذا يذهب بسالف الاحسان ، ويسقط حق الحرمة . **فان الصمت فى موضعه ، ربما كان أبلغ من المنطق فى موضعه ..»**

وانا لنعجب من صمت الشيعة ، والدنيا تموج بالسخط والغضب على الامويين ..

والواقع ان مصرع الحسين أذهلهم الى حين ، ولكن ما ان مضى عام وبعض عام على هذا الحادث ، حتى جمعوا شملهم فى الكوفة . وكان عبد الملك بن مروان قد تولى الامر ..

سير عبد الملك جيشا يقوده عبيد الله بن زياد لقتال جيش الكوفة ، الذى أسمى جنوده أنفسهم « التوابين » لندمهم على قعودهم عن نصرة الحسين عندما قدم اليهم .

وهزم التوابون .. وعادت فلولهم ، لتجد دعوة شيعية جديدة يتزعمها شخص هو من اغمض واعجب شخصيات التاريخ فى هذه الفترة هو المختار بن أبى عبيد الثقفى .. كان رجلا واسع الاطماع .. نظر حوله الى الاحزاب المتناحرة .. اتصل بابن الزبير فى الحجاز ولكنه لم يتفق معه .. ووجد من الأفضل له أن يدعو لخليفة معين من العلويين هو محمد بن الحنفية .. وأدخل فى أتباعه آراء فى تقديس الامام ، واستعاروا من الهند تناسخ الأرواح ، ومن المسيحية رجعة الامام ، وذهبوا الى أن محمد بن الحنفية يختفى فى جبل رضوى وأنه عائد يوما ليملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا ..

وصدق كثيرون هذا المذهب ، ونسبوا تعاليمه الى كيسان مولى علي بن أبي طالب ، ولذا أسموا الكيسانية ٠

مهما يكون الامر ، فقد تلقف المختار وأعوانه التوابين من أهل الكوفة الذين انهزموا أمام عبيد الله بن زياد ، وضمهم الى صفوفه ، وكر بهم وبأتباعه مرة أخرى على جيش الشام بقيادة أحد قواده هو ابراهيم بن الاشتر ٠٠

ومن عجب ان الحماسة تملكت هذا الجيش الذى حسب انه مسير بأوامر ألهية ٠٠ فوثبوا على عبيـد الله بن زياد وجيش الشام ، وهناك عند نهر الخازر فى شـمال العراق ، دارت معركة رهيبة هزم فيها ابن زياد وقتل ، وهلك معه عدد كبير من زعماء الجيش الأموى ٠

وقوى نفوذ المختار ٠٠ ووقف شامخا بين خليفتين : واحد فى الشام هو عبد الملك بن مروان ، وآخر فى الحجاز هـو عبد الله بن الزبير ٠

وكان ابن الزبير شديد الضيق ، من هذا « المختار » الذى حشر نفسه فى المعركة الكبرى ٠

وكان ابن الزبير قد أعد جيشا كبيرا لقتال الامويين ولحماية الحجاز بقيادة أخيه مصعب وبدلا من أن يأمره بالمسير الى الشام، أمره بالمسير الى العراق لمناجزة المختار ٠

وبالقرب من الكوفة دارت معركة رهيبة قتل فيها المختار ، وانتصر الزبيران ، وهلك من « التوابين » سـبعة آلاف ٠٠ وأصبح ابن الزبير سيد الكوفة ، وسيد الحجاز ٠

* * *

ماذا صنع عبد الملك بن مروان فى هـــذا الوقت ، يروى

obeikandi.com

المسعودى ان عبد الملك كان ينتظر فى « طنان » نتيجة المعركة بين جيشه بقيادة ابن زياد ، وجيش المختار . فأتاه خبرمقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليـــل . وأتاه فى تلك الليلة مقتل جيش ابن دلجة . وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير . ثم جاءه خبر دخول بابل بن ميشن فلسطين من قبل ابن الزبير .. ومسير مصعب ابن الزبير من المدينـــة الى فلسطين .. ثم جاءه مسير ملك الروم ، ونزوله المصيصة يريد الشام . ثم جاءه خبر دمشق ، وان عبيدها وأوباشها ودعارها خرجوا على أهلها ، ونزلوا الجبل . ثم أتاه ان من فى السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة . وان خيل الاعراب اغارات على حمص وبعلبك والبقاع .. وغير ذلك مما جاءه من الاحداث فى تلك الليلة .

يروى المسعودى : فلم ير عبد الملك فى ليلة قبلها أشـــد ضحكا ، ولاأحسن وجها ، ولاأبسط لسانا ، ولاأثبت جنانا منه تلك الليلة ، تجلدا وسياسة للملوك . فترك اظهار الفشل ، وبعث بأموال وهدايا الى ملك الروم ، فشغله وهادنه ، وسار الى فلسطين وعند اجنادين هزم جيش ابن الزبير .

وفى عام ٧٢ هـ سار مصعب ابن الزبير فى جيش العراق يريد اخضاع الشام ، وتحرك عبد الملك بن مروان فى جيش من أهل الشام وأهل مصر . وعلى شاطىء دجلة دارت معركة رهيبة قتل فيها مصعب واحتزت رأسه .

دار الرؤوس

يروى المسعودى عن أبى مسلم النخعى قال : رأى عبد الملك

مني اضطرابا ، فسألني فقلت :
ـ أيا أمير المؤمنين ٠٠ دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدى ابن زياد فى هذا الموضع ٠ ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار فيه ٠ ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدى مصعب بن الزبير ٠٠ وهذا رأس مصعب بين يديك ٠٠ فوقاك الله يا أمير المؤمنين ٠٠

قال : فوثب عبد الملك بن مروان وأمر بهدم الطاق الذى على المجلس !!

وتلقى عبد الملك بيعة أهل الكوفة

أما معسكر الحجاز ، فكان الموقف فيه عصيبا ٠ جاءت الانباء بمصرع مصعب ، فكتمه عبد الله بن الزبير حينا حتى تحدث به الناس ، ثم صعد المنبر يرثى أخاه ٠٠ وكأنما يرثى نفسه ٠

وأرسل عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان هـذا أول ظهوره فى عالم السياسة والحرب ٠٠ أرسله ليفرغ من أمر الحجاز ومن أمر عبد الله بن الزبير ٠

وحول مكة عسكر جيش الحجاج ، وحاصرها ، وكان ذلك سنة اثنين وسبعين من الهجرة ٠

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وهى على مايصفها المسعودى بلغت مئة سنة لم تقع لها سن ، ولا أبيض لها شعر ٠٠ قال عبد الله لامه :

ـ يا أمه كيف تجدينك ؟ قالت :

ـ اني لشاكية يابني ٠ قال لها :

ـ ان فى الموت راحة .. قالت :

ـ لعلك تتمناه لى . وما أحب ان أموت حتى يأتى على أحد طرفيك : اما قتلت فأحتسبك . واما ظفرت فقرت عينى بك

ودارت معركة بين الجيشين ، هزم فيها ابن الزبير وقتل ، وأمر الحجاج به فصلب بمكة ، وكان ذلك سنة ٧٣ للهجرة .

وكلمت اسماء الحجاج فى دفنه فأبى عليها .

obeikandl.com

الحجاج .. أى الرجال هو ؟

وظل الحجاج واليا على الحجاز واليمن من قبل عبد الملك بن مروان ثلاث سنوات ، أقر فيها الأمر للأمويين كما كان فى أيام معاوية .

وهكذا نرى عبد الملك قد أمن جانب الجبهة المعارضة ، التى تحصن فيها الزبيرون .. وما كانت لهم حجة فى طلب الملك من الأمويين الا استثمار حالة السخط التى عمت الناس عقب استشهاد الحسين والسبعين من آل بيته .. وفتور الدعوة الشيعية ، لوقت قصير ..
ويمكن ان نستعير تعبيرا شاع فى ذلك العهد ، وهو ان الحجاز وبعض العراق وبعض مصر ساندت عبد الله بن الزبير ، لا حبا فيه ، ولكن كرها لبنى أمية .

فلما ظهرت دعوة شيعية جديدة تزعمها المختار ، وتمكنت من قتل ابن زياد وأمراء جيشه تحولت لها قلوب الناس وانفضت من حول ابن الزبير فكانت نهايته .

والآن ، وقد اطمأن خليفة الأمويين القادر عبد الملك بن مروان الى سكون الحجاز ، ترى هل دانت له الدنيا ؟

لا .. فان العراق كانت تغلى مراجله . فان الشيعة فى جانب كانوا يموجون بالسخط والغضب . كما أن الخوارج من جانب آخر كان أمرهم قد غلظ ، وساعدهم اشتد ، وتجمع حولهم كثير من المسلمين في البصرة وشمال العراق .

وخشى أهل البصرة خطر هذا الفريق المتعصب من المسلمين، الذى كان خطأ عليا ، وخطأ معاوية فيما مضى ، والذى كان من بين خناجرهم خنجر قضى على أمير المؤمنين على ·· ولهذا اجتمعوا حول رجل من الأفذاذ فيهم هو المهلب بن أبى صفرة،وطالبوه بأن يجمع منهم جيشا يصد عنهم خطـر الخوارج ، حتى تسلم البصرة من عنفهم وقسوتهم فى معاملتهم لمن خالف رأيهم ·

وكان الخوارج فرقا ، وكان من نصيب المهلب أن يقـاتل أشدهم شكيمة وهو قطرى بن الفجاءة ··

واستراح الخليفة لهذه الانتفاضة من البصرة ، وهذه العزيمة من المهلب فى قتال الخوارج ·· ولقد وصفه الخليفة عبد الملك بقوله : « هو الميمون النقيبة ، المقاسى للحرب ، ابنها ، وابن أبنائها »

ولكن جبهات القتـال ضد الخوارج تعـددت · وزعماؤهم كثروا ·· ونظر عبد الملك بن مروان ، فلم يجد فى جعبته رجلا أصلب من هذا الشاب الذى كفاه أمر الحجاز ، وهو الحجاج ·· فولاه أمر العراق ·

وكان الحجاج يعلم الكثير عن أهل العراق ،ويرى فى النظريات التى بثها الخوارج بينهم خطرا كبيرا يتهدد كيان الخلافة كلها ·· فقد كانوا يطالبون بان يكون الخليفة منتخبا من بين العـرب جميعا ، دون النظر الى عصبية ، أو وراثة من أى نوع · وان من يقع عليه اختيار الأمة ، لا ينبغى له أن ينزل عن هذا الحق الا اذا جار وبغى فى الأرض ، وعندها يعزل او يقتل !!

لقد وجد كثير من أهل العراق فى هذه الآراء ، راحة لهم من عناء البيوت المتناحمة : بيوت هاشم وأميه وغيرهما ·

obeikandi.com

ولكن العراقيين لم يكونوا رجلا واحدا فى اعتناق هـــذه المبادىء . فما تزال فى نفوس فرقة كبيرة منها رواسب كبيرة موالية للعلويين ، نادمة على خذلانهم لعلى ، وللحسين بن على .

كان الحجاج فى دمشق عندما طالب هو بنفسه ولاية العراق وألح فى الطلب . فلما فاز بغرضه ، أمده الخليفة بجيش سار فيه حتى وصل الى القادسية فترك الجيش وراءه يستريح ، ودعا بجمل جلس عليه بغير خشبة ولا وكاء . وأخذ كتـــاب التولية بيده ، ولبس ثياب السفر ، وتعمم بعمـــامة كبيرة ، وضرب راحلته حتى دخل الكوفة وحده ، وطاف فى شوارعها ينادى : الصلاة جامعة

يروى المسعودى أن زعماء الكوفة تجمعوا ، كل واحد منهم حوله العشرون والثلاثون من أتباعه ومواليه .

وصعد الحجاج المنبر وعمامته تغطى معظم وجهه ، وقوسه فوق ظهره ، وابهامه فوق فمه .. وظل صامتا ، حتى سمع همهمة من أركان المسجد والناس يقول بعضـــهم لبعض : قوموا حتى نحصبه (نرميه بالحصا) .. وأخذوا يتندرون عليه ، ويصفه واحد بأنه اعرابى فقد حجته ، والثانى بانه رجل حصر فما يقدر على الكلام .. فلما طال الوقت ، واشتد الزحام . نهض الحجاج واقفا ونحى العمامة عن رأسه وحسر اللثام عن وجهه وقال فى صوت مجلجل دون أن يحمد الله أو يثنى عليه :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

ثم خطب خطبته المشهورة التى لاحت له فيهـــا ، أعناقا

متطاولة ، ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها حتى قال : وانى أنا صاحبها ، وكأنى أنظر الى الدماء ترقرق بين العمـــائم واللحى ..

وأخطرهم بانه أصبح أميرهم بقوله :

« ان أمير المؤمنين نثر كنانته ، فوجدنى أمرها طعما واحدها سنانا ، وأقواها قداحا ، فان تستقيموا تستقيم لكم الأمور ، وان تأخذوا لى بثنيات الطريق ، تجدونى لكل مرصد مرصدا ، والله لا أقيل لكم عثرة . ولا أقبل منكم عذرة »

وبعد ان وصف أهل العراق بانهم أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ، تهددهم بعذاب شديد وضرب أليم كما تضرب الابل الغريبة ، فى وسط القطيع .

وأخطرهم باسمه فى وسط عاصفة من الشتائم .. وهو يقول : طالما سعيتم فى الضلالة ، وسلكتم سبيل الغواية ، وسننتم سنن السوء ، وتماديتم فى الجهالة .. يا عبيد العصا وأولاد الاماء . انا الحجاج بن يوسف .. أنا والله لا أعد الا وفيت .. وأحلف الا بررت ..

وبحث فى القرآن ، فانتقى منه آية تزمجر بالغضب قذفها فى وجوههم .. قال لهم :

« يا أهل العراق . انما مثلكم كما قال الله عز وجل « كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغـــدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » .

فأسرعوا وأقيمـــوا ، واعتدلوا ولا تميلوا . وشـــايعوا وبايعوا »

وقال : انما هو انقضاء السيف ، ثم لا أغمده فى شتاء ولا صيف ، حتى يقيم الله لأمير المؤمنين أودكم ، ويذل به صعبكم .

« ألا أن أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم ، وأشخاصكم الى محاربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب (بن ابى صفرة) . وقد أمرتكم بذلك . وأجلت لكم ثلاثا واعطيت الله عهدا يؤاخذنى به ، ويستوفيه منى ، الا أجد أحدا من بعث المهلب بعدها ، ألا ضربت عنقه وانتهبت ماله ..

ثم صاح بغلامه :
اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ..

وبدأ الغلام يقرأ أول الكتاب وهو : سلام عليكم . فانى أحمد الله اليكم ..

وهنا صاح الحجاج مرة ثانية : اسكت يا غلام .. وزمجر فى وجه أهل الكوفة مغضبا :
يا أهل العراق والنفاق والشقاق ومساوى الاخلاق . ياأهل الفرقة والضلال .. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام ! اما والله لئن بقيت لكم لألحونكم لحو العود . ولأؤدبنكم أدبا غير هذا الادب .. هذا أدب آبن سميه (يقصد زيادا) وهو صاحب شرطة كان بالعراق !!
وصاح بالغلام أن يقرأ الكتاب من جديد .. فلما بلغ السلام رد أهل المسجد جميعا : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته .

وبعد ثلاثة أيام كان الناس قد تجمعوا لامداد المهلب ، وكان يحارب الازارقة احدى فرق الخوارج بمهرجان ..

وتقدم منه رجل شيخ طلب اعفاءه من المسير وأن يأخذ مكانه شاب من أبنائه .. ورضى الحجاج ولكن واحدا همس فى أذن الحجاج ، ان هذا الشيخ هو عمير ابن ضابىء البرجمى أحد قتلة عثمان !!

وهنا تغير وجه الحجاج ، وراح يصـــعد بصره فى الرجل ويطوف حوله ، وهو يعبث بلحيته حتى اذا أخذ نصيبه من الطواف حول هذا الرجل قال له :

ـ يا عمير .. سمعت مقالتى على المنبر ؟ قال الشيخ :

ـ نعم .. قال الحجاج :

ـ والله انه لقبيح بمثلى أن يكون كذابا .. تمم يا غلام فاضرب عنقه

فلما تهاوت هذه الرأس على الارض ، كان جيش الكوفة يثب كله فوق ظهور الخيل والابل ، وهو يغذ السير لمعونة المهلب . وبلغ من ازدحامهم على الفرات ، ان الناس كانوا يسقطون من فوق الجسر . فأمر أن يمد جسر آخر يعبر عليه الناس .

أغرب الحروب

اذا كانت حروب تلك الفترة ، تجد لها اسبابها ، من طمع فى ملك ، أو تأييد لعقيدة ، أو غزوة تفتح بها أرض جديدة ، فان حرب « دير الجماجم » هى أغرب حروب هـذا العصر ، لانها فقدت كل باعث وحار فيها القدماء ، كما حار المحدثون .

يقول الطبرى فى حوادث سنة ٨٠ للهجرة ان الحجاج وجه عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الى سجستان لحـــرب « رتبيل » صاحب الترك . وقد اختلف أهل السير فى سبب توجيهه اياه اليهـا ، وأين كان عبد الرحمن يوم ولاه الحجـاج سجستان ..

ويمضى الطبرى فيروى قصة يثبت بها انه لم يكن هنـاك شخص يكرهـه الحجاج مثلمـا يكره ابن الاشـعث ، حتى ان الحجاج قال عنه مرة وهو يدخل عليه انه كلما نظر الى مشيته هم بضرب عنقه .. وروى شيء كهذا عن ابن الاشـعث الذى أقسم الا يدخر جهدا فى سبيل ازالة الحجاج عن سلطانه !

ومع هذا ، فقد ولى الحجاج هذا الرجل الذى يكرهه ثغـرا من الثغور الهامة ، كله قلاقل ، وكله حروب . وأمده بجيش قوي .. ولما وصل الى مقر امارته جاءته الرسل من « رتبيل » أمـير الترك بأنه يريد المهادنة . فلم يرض ابن الاشعث . وظل يهاجم البلاد ، وعدوه يتخلى منسحبا ، تاركا الارض وراءه ، دون ان تحدث معركة ، ودون أن يصل ابن الاشعث الى القلاع والمدن . وكتب للحجاج يخبره بمـا فعل . فرد الحجاج يعنفه

ويلومه أعظم اللوم ، ويصفه بأنه امرؤ ــ يحب الهدنة ويستريح الى الموادعة ، ويصـــانع عددا قليـلا ذليلا • وأمره بأن يمضى فى الزحف ويهدم الحصون ، ويدمر الجيوش المعادية •

ولم يرض ابن الاشعث بتنفيذ هـذا الامر ، وجمع أمـــراء الجيش ، وقال لهم ان الحجاج مايبالى أن يخاطر بكم ، فيقحمكم بلادا صعبة ، فان ظفرتم أكل البلاد وحاز المـــــال ، وزاد سلطانه • وان ظفر عدوكم ، كنتم أنتم الاعداء الذى لا يبالى عنتهم ، ولا يبقى عليهم •••

ثم طلب منهم أن يخلعوا « عدو الله الحجاج » وبايعه الناس بالامارة ، وخلعوا الحجاج •

ووصلت الانباء الى الحجاج بما حدث وطلب منه مددا • ووصلت الانباء الى المهلب فى امارته بسجستان ، فكتب الى ابن الاشعث ينصحه بالدخول فى الجماعة ، والا ينـــــكث بيعته ••

وكان المهلب أريبا فطنا ، فكتب الى الحجاج يحذره بقوله : « ان أهل العراق قد أقبلوا اليك وهم مثل السيل المنحدر من علي ليس بشيء يرده حتى ينتهى الى قراره • »

وهذه الرسالة تعبر لنا عن شدة ما كان يعانيه أهل العراق من موجدة على الحجاج ، وعلى حكم الامويين • وتدلنا على مدى سخطهم من دفعهم الى الحدود الاسلامية ، وبهم شـــوق الى أولادهم ونسائهم •

وهذه روح تخالف تلك الروح التى سادت العرب أيام أبى بكر وعمر والراشدين جميعا ، من تفضيل الغزو والجهاد على الركون الى البيوت وراحتها

أقام الحجاج بالبصرة وأخذت الامداد تأتيه من الشام ٠ فلما كمل له جيش جديد ، خرج به ليلقى ابن الاشعث ، الذى قربت مقدمته وزارت قوته بما انضم اليها من العراقيين فى كل أرض يمر بها ٠

وفى معسكرين متقابلين ٠٠ معسكر للحجاج بدير قرة ، وآخر لابن الاشعث فى دير الجماجم ، أخذ الجيشان يتحفزان بعد حروب الاستطلاع الاولى

يقول الطبرى عن جيش العراقيين : « جميعهم على حرب الحجاج بغضهم وكراهيتهم له ٠ وهم اذ ذاك منه ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء (الجنود النظاميون) ومعهم مثلهم ممن والاهم »

وفكر الخليفة عبد الملك بن مروان فى هذه الحرب مرتين ٠٠ ورأى أن يحسمها سلما اذا استطاع ٠ وما دامت رغبة جيش العراق الثائر ، أن يعزل الحجاج عن حكمه ، فليعزل الحجاج على أن يدخلوا فى الطاعة ٠٠ وبعث رسلا تفاوض

وبلغ الحجاج هذا الامر ، فما كان — كما فى رواية الطبرى — أمر قط أشد عليه ، ولا أغيظ له ، ولا أوجع لقلبه منه ، مخافة أن يقبل ابن الاشعث هذا العرض ، فيعزل هو ٠٠

ولهذا كتب الحجاج الى عبد الملك يثنيه عن هذا الرأى ، ويقول له : « والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى ، لايلبثون الا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا اليك ، ولا يزيدهم ذلك الا جرأة عليك ·· وختم رسالته بجملة مأثورة ، وهى « ان الحديد بالحديد يفلح » !

ولكن الخليفة عبد الملك — مع هذا — رغب فى أن ينهى الفتنة سلما · فبعث رسله من امرائه وأقاربه يفاوضون ابن الاشعث وجنده · وقبل ابن الاشعث ما عرض عليه ، ولكن زعماء الجيش رفضوه فقد حسبوا « ان الله أهلكهم فأصبحوا فى الذل والضنك والمجاعة ·· ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرفيع والمادة القريبة ·· لا والله لانفعل » ·

ودارت الحرب فى دير الجماجم ، وانهزم العراقيون بعد قتال مرير ·

وصاح الحجاج فى جنده « اتركوهم فليتبددوا ، ولا تتبعوهم » ونادى المنادى من رجع ، فهو امن

وتفرق جيش العراق ، فقد كانت نقطة ضعفه ان جنده كانوا قريبين من بيوتهم ·· وان الزهو ركبهم ، فلم يحسبوا حسابا لصلابة جند الشام ، ولا لحيل الحجاج وحسن بلائه ··

وتراجع ابن الاشعث من دير الجماجم الى مسكن ، مع فلول جيشه ·

وسار وراءه الحجاج متخذا طريق المدائن ، وأوفد عبد الملك ابن المهلب مع مدد قوى جيش الحجاج ، وبعد قتال شديد

Obeikandi.com

استمر ايام هزم ابن الاشعث مرة أخرى ، وانسحب الى سجستان ، فتبعته قوة من جيش الحجاج .

والفرار بعد هذا طويل ، والهزيمة مرة .. قال واحد لابن الاشعث فى رحلته الطويلة مع بعض انصاره قاصدا أرض « رتبيل » الذى بعث أول الامر كى يحاربه . قال هذا العربى لابن الاشعث :

— يا ابن الاشعث . بلغنا عنك انك كنت جبانا . فرد .

— والله ما جبنت . والله لقد دلفت الرجال بالرجال . ولففت الخيل بالخيل ، ولقد قاتلت فارسا ، وقاتلت راجلا ، وما انهزمت ، ولا تركت الساحة للقوم فى موطن حتى لا أجد مقاتلا ، ولا أرى معى مقاتلا .. ولكنى زاولت ملكا مؤجلا ! »

ولقد بلغت وقائع ابن الاشعث ضد الحجاج وسلطان دمشق ثمانين واقعة قبل ان تستنفد قوته ..

وكان أسرى هذه المعارك يساقون الى الحجاج لينظر فى أمرهم

كان من زعماء الثوار عامر الشعبى ، سأل عنه الحجاج فقيل انه فى جوار عامله بالرى ، فطلب استقدامه ، ولما حضر قال للحجاج

— أيها الامير . ان الناس قد أمرونى ان أعتذر اليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وايم الله لا أقول فى هذا المقام الا حقا . قد والله سددنا عليك ، وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما آلونا . فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الاتقياء البررة ، ولقد

obeikandi.com

نصرك الله علينا ، وظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا ، وما جرت اليه أيدينا ، وان عفوت عنا فبحلمك · وبعد ·· الحجة لك علينا

فرد الحجاج :

ـ أنت والله أحب الى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ، ثم يقول : ما فعلت ، ولا شهدت · قد أمنت عندنا يا شعبى ··

وانصرف الشعبى ·· فلما مشى قليلا ناداه الحجاج قائلا :
ـ هلم يا شعبى ··

فوجل قلب الرجل ، ولكنه تذكر أمانه ، فعاد ·· وسأله كيف وجد الناس بعد خلافه ·· فذكر له الشعبى كلاما انجاه مرة ثانية يصف فيه الخوف وفقدان الصحبة الطيبة ·· فسمح له بأن ينصرف ·

وكان ممن أعدمه الحجاج جزاء خروجه عليه الشاعر المعروف أعشى همدان

وجاء دور ابن الاشعث ·· فقد ثابر الحجاج على الكتابة الى « رتبيل » يطلب تسليم هذا اللاجىء ، وبعث اليه من يفاوضه ، فى سلم يدوم سنين معدودة ·· وفى رفع الخراج عنه ··

قيل ، وكانت بابن الاشعث علة ، فمات واحتز « رتبيل » رأسه ، وأرسلها للحجاج ، مع من بقى من أهله

وهكذا انتهت هذه الانتفاضة « العراقية » الكبرى على

حكم الامويين ، وكانت سنواتها من أرهب سنوات الكفاح من أجل الملك . وضحاياها من أكثر الضحايا عددا ..

وقد رغب الخليفة عبد الملك بن مروان فى أن يهدىء الحجاج من عنفه ضد العراقيين فكتب اليه :

.. بلغ أمير المؤمنين شرفك فى الدماء ، وتبذيرك فى الاموال . ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لاحد من الناس .. وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء الدية ... وفى العمد القود . وفى الاموال ردها الى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه .

« فانما أمير المؤمنين أمين الله . وسيان عنده منع حق ، واعطاء باطل . فان كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك . وان كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم . وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لين وشدة فلا يؤنسك الا الطاعة ولا يوحشك الا المعصية . وظن بأمير المؤمنين كل شىء الا احتمالك على الخطأ . واذا أعطاك الظفر على قوم ، فلا تقتلنى جانى ولا أسيرا »

ورد الحجاج ردا فيه مهارة وكياسة قال :

.. أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء ، وتبذيرى فى الاموال . ولعمرى ما بلغت فى عقوبتى أهل المعصية ما هم أهله . وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه فان كان قتل أولئك العصاة سرف ، واعطائى أولئك المطيعين تبذيرا ، فليس على أمير المؤمنين ما سلف . وليمد لى فيه حدا

انتهى اليه انشاء الله تعالى ولا قوة الا بالله ٠ والله ما على من الرفيع والمادة القريبة ٠٠ لا والله لا نفعل »

عقل ولا قود ٠٠ ما أصبت القوم خطأ فأفديه ٠ ولا أعطيتهم الا لك ، ولا قتلت الا فيك وأما ما أنا منتظره من أمريك ، فألينهما عدة ، وأعظمهما محنة ٠ فقد عبأت للعدة الجلاد ، وللمحنة الصبر ٠٠ »

هذا الخليفة

ولقد أطلنا بعض الشيء في ذكر الاحداث الكبيرة التي وقعت أيام عبد الملك بن مروان ، لنعطى للقراء فكرة واضحة عن الصدوع الكثيرة التي خلفتها ثلاثة أعوام من حكم أخرق ، هو حكم يزيد بن معاوية ٠٠ فان عشرين عاما وعاما أنفقهما عبد الملك بن مروان ، في درأ الاخطار عن دولة ٠٠ معظمها أخطار داخلية

وكان من حسن حظه أن ظهر في عهده عدد من الرجال ذوي الكفاءة الادارية والحزم والصبر على المكاره ٠ وهي بعض صفات عبد الملك نفسه ٠ منهم بيت المهلب بن أبي صفرة ٠ ومنهم الحجاج ٠٠

ولقد قيل الشيء الكثير في ذم الحجاج ٠٠ ولكن بعض ما ذكر عنه انما كان على سبيل النقمة من عهد الامويين كله ٠٠ وقد زاد العلويون فيما قيل ، وكذلك فعل الشيعة ٠ حتى ان المسعودي صاحب مروج الذهب يقول :

obeikandi.com

« مات الحجاج فى سنة ٩٥ وهو ابن ٥٤ سنة بواسط فى العراق . وكان تأمره على الناس عشرين سنة . وأحصى من قتله صبرا سوى من قتل فى عساكره وحروبه ، فوجد ١٢٠ ألفا . ومات وفى حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة . منهن ستة عشر ألفا مجردة !! وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد . ولم يكن للمحبس ستر يستر الناس من الشمس فى الصيف ولا من المطر والبرد فى الشتاء »

وقد أدت كثرة الحروب . وحاجتها للمال الى أن عاد الحجاج الى سياسة منبوذة ، وهى أن يدفع الموالى (المسلمون من غير العرب) الضرائب كما يدفعها الكفار .. ووجه للحجاج نقد كثير من أجل هذه السياسة ، وظهرت نتائجها بعد حين ، عند ما بدأ أبو مسلم الخراسانى يعد لثورة عمادها الموالى ضد الحكم الاموى .

ومات الحجاج فى عهد الوليد بن عبد الملك . ولم يوجد فى خزينته غير مصحف ، وحفنه صغيرة من النقود الفضية ..

أما عبد الملك ، ألمع خلفاء بنى أمية ، بعد معاوية . فقد ظفر بعناية كبيرة من المؤرخين . كان فصيحا ذكيا أثر عنه قوله : شيبنى صعود المنابر والخوف من اللحن . وروى عنه قوله فى بياض شعره : « وكيف لا . وأنا أعرض عقلى على الناس كل جمعة » عندما كان يصلى بالناس الجمعة ويخطبهم

وقبل وفاته دعا الناس الى البيعة لولديه : الوليد ، ثم سليمان . فبايع الناس الا المحدث العالم سعيد بن المسيب

وكان بالمدينة ·· وقد ضربه والى المدينة ضربا مبرحا وحبسه فلما بلغ عبد الملك ما حدث لام واليه وقال : انما كان ينبغي أن يدعوه الى البيعة ، فان أبى يضرب عنقه ، أو يكف عنه ··

كما كان من ضحايا تلك الايام سعيد بن جبير العالـــم الفاضل والمحدث الجليل ·· ظفر به الحجاج وسأله :

ـ ما اسمك قال

ـ سعيد بن جبير · فرد الحجاج :

ـ بل شقى بن كسير !! قال

ـ ابى كان أعلم باسمي منك · رد الحجاج

ـ لقد شقيت وشقى أبوك · قال

ـ ألغيب انما يعمله غيرك · رد الحجاج

ـ لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى · قال

ـ لو علمت ان ذلك بيدك ، ما اتخذت الها غيرك ! رد الحجاج

ـ فما قولك في الخلفاء قال :

ـ لست عليهم بوكيل · قال الحجاج

ـ فاختر أي قتلة تريد ان أقتلك · قال سعيد

ـ بل اختر يا شقي لنفسك · فوالله ما تقتلني اليوم بقتلة الا قتلتك في الاخرة بمثلها

فأمر به الحجاج فأخرج ليقتل . فمضى سعيد يضحك فرده الحجاج وسأله عن ضحكه فقال :

عجبت من جرأتك على الله ، وحلم الله عنك .

وأمر به الحجاج أن يذبح ، فلما انكفء على وجهه قال :

- أشهد ألا اله الا الله ، وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . وان الحجاج، غير مؤمن بالله .. اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدى

ولم يعش الحجاج بعده الا خمس عشرة ليلة .. ويروى انه كان يقول بعد قتل سعيد :

« يا قوم . مالى ولسعيد بن جبير . كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى »

وفاة عبد الملك

دخل الوليد على أبيه وهو فى مرض الموت ، فبكى وتلفت عبد الملك فوجد ابنه وولى عهده يبكى فقال له :

- ياهذا .. أحنين الحمامة ؟ اذا أنا مت فشمر واتزر .. والبس جلد نمر وضع سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه .

وكان عبد الملك فصيحا ، وقد أدركته صحوة الموت فسمع

وهو يقول : ان طويلك يادنيا قصير وان كثيرك لقليل ، وان كنا منك لفي غرور .

وأوصى بنيه وقد تجمعوا حوله فقال لهم : « أوصيكم بتقوى الله ، فانها عصمة باقية ، وجنة واقية فالتقـــوى خير زاد ، وأفضل في الميعاد ،وهي أحصن كهف .. وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير مع سلامة الصدور ، وأخذ بجميل الأمور ، واياكم والتحاسد ، فبه هلك الماضون وذوو العزم المكين ... » .

ثم أوصاهم أن يلتفوا حول أخيهم الوليـــد ، وأن يكرموا الحجاج « فانه الذي وطأ لكم هذا الأمر » .

وسأله بعض شيوخ بني أمية :

ـ كيف نجدك ياأمير المؤمنين ؟ فقال :

ـ كما قال الله عز وجل : **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** .. فكان هذا آخر كلام سمع منه .

obeikandl.com

عشرة أعوام حسان..

بيعة الجماعة

كان لابد للأمة أن تستريح بعد كل هذا الاجهـــاد الذى أصابها منذ تولى معاوية حتى مات عبد الملك بن مروان ·

انها فترة استغرقت أربعا وأربعين عاما مضت منذ انتهى عهد الخلفاء الراشدين لم يدخل السيف فى غمده ولم تنته من أنحاء الدولة الفتن والقلاقل ·

ولو ان عبد الملك جلس على العرش ، والبلاد هادئة ساكنة لأمكن أن يصنع للناس خيرا كثيرا ·

الا أن ابنه الوليد ورث عنه رجاحة عقله ، مع سخاء فى اليد وسماحة فى الطبع لم تكن أظهر صفات أبيه ·· ودام حكمـــه عشرة أعوام نشطت فيها الفتوح كما لم تنشط من قبل ·

كان الوليد شابا حين تولى الخلافة ، لم يتجاوز الثـــالثة والثلاثين من عمره، ومع هذا فقد انجب أربعة عشر ولدا ذكرا·

وكانت زوجه وبنت عمه ، أم البنين ، بنت عبد العزيز من ألمع نساء عصرها ·

صعد الوليد الى المنبر ، بعد أن أسلم أبوه الروح ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « لم أر مثلها مصيبة ، ولا مثلهـا نعمة ، فقدت الخليفة ، ونقلت الخلافة ، فانا لله وانا اليه راجعون على المصيبة ، والحمد لله على النعمة ·

obeikandl.com

ثم دعا الناس الى بيعته فبايعوا ، لم يختلف عليه أحد .

ويمكن بحق أن يسمى هذا بالاجماع ، فالوليد كان أول خليفة بعد عمر بن الخطاب ، لم يختلف على ولايته أحد .. لا لأن الجميع كانوا أمويين أو من أنصار بني أمية ، ولكن لأن ريح المعارضة خفتت ، والناس من فرط الحروب الداخلية وبلائها أجهدوا اجهادا عظيما .

.. التى غلبت الحجاج

روى المسعودى أن الحجاج وفد على الوليد أول ولايته فوجده فى بعض نزهه ، فاستقبله ، فلما رآه ترجل له وقبل يده ، وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية، قال له الوليد :

ـ اركب يا أبا محمد .. رد الحجاج :

ـ دعنى يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد ، فان ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى عنك .

فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره ولبس عباءة رقيقة ، ثم أذن للحجاج فدخل عليه فى حاله تلك ، وأطال الجلوس عنده .. فبينما هو يحادثه ، اذ جاءت جارية فسارت الى الوليد ومضت ، ثم عادت فسارت ثم انصرفت ، فقال الوليد للحجاج :

ـ أتدرى ماقالت هذه يا أبا محمد .. قال الحجاج :

ـ لا والله .. قال الوليد :

ـ بعثتها الى ابنة عمى أم البنين بنت عبد العزيز تقول :

« ما مجالستك لهذا الاعرابي المتسلح فى السلاح وأنت فى

غلالة ، فأرسلت اليها انه الحجاج ، فراعهـا ذلك ، وقالت : والله ماأحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق » فقال الحجاج يعلق على هذه الرسالة :

ـ دع عنك مفاكهةالنساء بزخرف القول، فانما المرأةريحانه، وليست بقهرمانه ، فلا تطالعهن على سرك ، ولا مكايدة عدوك، ولا تطعهن فى غير أنفسهن ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن ، واياك ومشاورتهن فى الأمور ، فان رأيهن الى أفن ، وعزمهن الى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور مايجاوز نفسها ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن ، فان ذلك أوفر لعقلك، وأبين لفضلك !!

ثم نهض الحجاج فخرج ٠

ودخل الوليد على زوجته أم البنين ، فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين أحب أن تأمره غدا بالتسليم على فقال :

ـ سأفعل ٠

فلما غدا الحجاج على الوليد قال له :

ـ ياأبا محمد ، سر الى أم البنين فسلم عليها ، فقال الحجاج:

ـ اعفنى من ذلك ياأمير المؤمنين ، فقال :

ـ لابد من ذلك ٠

فمضى الحجاج اليها ، فحجبته طويلا ، ثم أذنت له ، فأمرته قائما ، ولم تأذن له فى الجلوس ، ثم قالت :

ـ ايه ياحجاج ٠٠ انت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن

الزبير ، وابن الأشعث !! اما والله لولا ان الله جعلك أهون خلقه لما ابتلاك برمي الكعبة ، ولا بقتل بنت ابن ذات النطاقين .. وأول مولود ولد في الاسلام (عبد الله بن الزبير) ، وأما ابن الأشعث ، فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك ، فأغاثك بأهل الشام ، وأنت فى أضيق من القرن. فأظلتك رماحهم ، وأنجاك كفاحهم ، ولولا ذلك لكنت أذل من النقد ، وأما ما أشرت به على أمـير المؤمنـــين من ترك لذاته ، والامتناع من بلوغ أوطاره ، من نسائه فان كن يلدن مثل ما ولدت أمك ، فما أحقه بالأخذ عنك ، والقبول منك ، وان كن يلدن مثل أمير المؤمنين ، فانه غير قابل منـــك ، ولا مصغ الى نصيحتك ، قاتل الله الشاعر ، وقد نظر اليك وسنان «غزالة» الحرورية (سيدة من الخوارج) بين كتفيك حيث يقول :

أسد على وفى الحروب نعـامة فزعاء كفرخ من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحي طائر

وصاحت أم البنين :

ــ أخرجنه عنى ..

فمضى الحجاج الى الوليد من فوره ، فسأله عن حاله فقال :

ــ والله ياأمير المؤمنين ماسكتت حتى كان بطن الأرض أحب الى من ظاهرها !

فأغرق الوليد ضحكا .

الفرســان الثــلاثة

ظهر فى عهد الوليد ثلاثة من القواد ، أعادوا للاسلام مجد فتوحه الأولى أيام الراشدين وهم **قتيبة بن مسلم الذى** فتح

مايسمى الان ازبكستان وحوض نهر سيمون ومنهـا بلاد بلخ وسمرقند وبخارى وخوارزم ووصل الى حدود الصين وثانيهما **محمد بن القاسم** القائد الشاب الذى فتح بلاد السند (جزءامن باكستان الحالية) ، ثالثهما **موسى بن نصير** فاتح الاندلس ٠

فتوح قتيبة :

كان الحجاج وراء هذه الحمـلة الكبيرة شرق بحر قزوين ، وكان يتابعها ٠٠ وكانت بخارى أعصى هذه المدن على قتيبة ٠٠ فلما تأخر فتحها ، طلب الحجـــاج وصفا كاملا لموقعها ، فلما جاءه أشار بالخطة الحربية التى تتبع فى اقتحامها ٠

يروى الطبرى فى أحداث سنة ٩٠ للهجرة ، ان كتـاب الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان عن انصرافه عن بخارى قبل الظفر بها وبملكها ، ويعرفه الموضع الذى ينبغى له ان يأتى البلد ، عاد قتيبة واذا التركمان تجمعوا من كل مكان ، والامداد توالت عليه من أقطار آسيا القريبة ٠ وهم فى عدد عظيم وعدة رهيبة ٠٠ يقول الطبرى :

٠٠ وركبهم المشركون ، فحطموهم ، حتى دخلوا فى معسكر قتيبة وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيـــل ، وبكين ٠٠

ولكن المسلمين كروا من الجنـاحين كرة شـديدة فرجع التركمان ، واحتلوا هضبة قريبة ٠٠ فنادى قتيبة :

— من يزيلهم لنا من عن هذا الموضع ؟٠

فلم يقدم عليهم أحد والقبائل كلها وقوف

فمشى قتيبة الى بنى تميم فقال :

ـ يا بنى تميم ٠٠ يوم كأيامكم ٠ ٠

فأخذ قائدهم اللواء بيده وصاح فى قومه : يابنى تميم ٠٠ اتسلموننى اليوم ٠٠ قالوا لا

وكان بين المسلمين وبين موقع التركمان الحصين نهر ٠٠ فاندفعت الخيل فيه سابحة ، ومد خشب فوق النهر ، وجازف بعض المحاربين، واندفعوا يفاجئون عدوهم حتى حازوا الموقع ٠

هكذا كان القتال الشديد فى تلك الايام ٠٠

وكان الحجاج يقول : « بعثت قتيبة فتى غرا فما زدته ذراعا الا زادني باعا »

ومضت جيوش المسلمين الى أذريبجان تفتحها ثم انثنت شرقا الى الصين ٠٠

سفارة ٠٠ لملك الصين

يروى الطبرى عن فتح كشغر وغزو الصين :

« كتب ملك الصين الى قتيبة : ابعث الينا رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ٠ ونسائله عن دينكم ٠٠ »

فانتخب قتيبة من عسكره اثنى عشر رجلا لهم جمال ، وأجسام ، وألسن ، وشعور ، وبأس ٠ وأمر لهم بعدة حسنة من السلاح ، والمتاع الجيد والعطر ، وحملهم على خيول مطهمة

تقاد معهم .. وأوصاهم قتيبة بما يجب ان تدور حوله هذه السفارة .

دخل الوفد على ملك الصين بعد رحلة طويلة وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا ...

قال الملك لمن حضره .. كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوما ما هم الا نساء !!

فلما كان الغد انعقد المجلس ، وحضر وفد المسلمين ، وعليهم عمائم الخز وكل ما هو طريف . وتكرر ماحدث فى اليوم السابق . وسأل ملك الصين رأى جلسائه فى هذا الوفد فقالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال . فلما كان اليوم الثالث أرسل اليهم فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبسوا وركبوا خيولهم .. فنظر اليهم ملك الصين، فرأى أمثال الجبال مقبلة . فلما دنوا ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمرين .

وفى اليوم الرابع ، استقبل الملك كبير هذا الوفد « هبيرة » .. قال له :

ـ قد رأيتم عظيم ملكى ، وانه ليس أحد يمنعكم منى . وأنتم فى بلادى . وانما أنتم بمنزلة البيضة فى كفى ... وأنا سائلك عن أمر فان لم تصدقنى قتلتكم .. قال :

ـ سل .. قال ملك الصين :

ـ لم صنعتم ما صنعتم من الزى فى اليوم الاول والثانى

والثالث ؟.. رد هبيرة ..

ـ أما زينا الاول فلباسنا فى أهالينا ، وريحنا عندهم وأما يومنا الثانى ، فاذا أتينا أمراءنا كنا كذلك . وأما يومنا الثالث فزينا لعدونا ، فاذا هاجنا هيج وفزع ، كنا هكذا ... قال الملك :

ـ ما أحسن ما دبرتم دهركم . فانصرفوا الى صاحبكم ، فقولوا له ينصرف ، فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، والا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه . قال له :

ـ كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيله فى بلادك ، وآخرها فى منابت الزيتون . وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها ، وغزاك . وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا أجالا ، اذا حضرت فأكرمها القتل . فلسنا نكرهه ولا نخافه .. قال الملك :

ـ فما الذى يرضى صاحبك ؟ قال هبيرة :

ـ انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ الجزية . قال الملك :

ـ فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليـــه بتراب من تراب أرضنا ، فيطأه .. ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها .

ودعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبنـــاء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا فقدموا بما بعث به .

فقبل قتيبة الجزية ، وختم الغلمان وردهم ، ووطئ التراب .

محمد بن القاسم وموسى بن نصير :

هذا طرف من أنباء المغازى فى أيام الوليد ، وكانت لجيوشه جولات موفقة فى حرب الروم لا تقل عن توفيقه فى شرق آسيا ..

أما توفيقه الاكبر فكان فى فتح الاندلس وهذا ما أفردنا له كتابنا عن طارق بن زياد ، مع تفصيل للفتوح فى أيام الوليد وسليمان .

عهد من الرخاء

وعلى الرغم مما تحتاجه الحروب الخارجية من جهد ليس بعده جهد ، الا أن فتوحها تدر كثيرا من الخير المادى ، وكثيرا من الخير المعنوى ..

أما الخير المادى فيتمثل فى الغنائم

أما معنويات هذه الحروب ، فانها توحد جهود الامة ، وتعبئ قواها الروحية ، وتنفى عنها الخلافات .

لقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب ، ان الوليد « كان جبارا عنيدا ، ظلوما غشوما » .

ولكن لم يرد فى سيرته التى رواها شيئا من هذا ، وانما هى الحملة الشاملة على بنى أمية وخلفائهم جميعا ـ باستثناء عمر

ابن عبد العزيز ــ فالتاريخ كله ألف في عهد العباسيين أعدى أعداء بني أمية ٠

انما ذكر المسعودى شيئا آخر ٠٠ قال .

« وفى سنة تسع وثمانين ابتدأ الوليد بناء المسجد الجامع بدمشق ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ٠ فانفق عليهما الاموال الجليلة ٠ وكان المتولى للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى »

واستطرد المسعودى فى ذكر قصة بناء المسجد قائلا : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد فى حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب ، فلم يقدروا على قراءته ، فوجه به الى وهب بن منبه ٠ فقال : هذا مكتوب فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ٠ فقرأه فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ٠٠ « يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقى من يسير أجلك لزهدت فيما بقى من طول أملك ٠ وقصرت عن رغبتك وحيلك ٠ وانما تلقى ندمك اذا زلت بك قدمك ٠ وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ٠ ثم صرت تدعى فلا تجيب ٠ فلا أنت الى أهلك عائد ، ولا فى عملك زائد ، فاغتنم الحياة قبل الموت ، والقوة قبل البؤساء وقبل ان يؤخذ منك بالكظم ، ويحال بينك وبين العمل » ٠

فأمر الوليد ان يكتب بالذهب على اللازورد فى حائط المسجد : ربنا الله لا نعبد الا الله ٠ أمر ببناء هذا المسجد ،

وهدم الكنيسة آلتى كانت فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين ·

يقول المسعودى : وهذا الكلام مكتوب بالذهب فى مسجد دمشق الى وقتنا هذا · وهو سنة ٣٣٢ هـ ·

ومن مآثر الوليد ، انه كان شديد العطف على الفقراء والبر بهم حتى كان أول خليفة فى الاسلام خصص للمجذومين أعطيات تمنعهم من السؤال · وخصص لكل مقعد خادما يدفع أجره من خزانة الدولة ، وقائد لكل ضرير يسهر على راحته ·

الاقبال على الاسلام

ويبدو أن المسيحية كانت منتشرة فى بلاد فارس وما يليها شمالا ، وفى المناطق التى حارب فيها قتيبة بن مسلم ، وأحرز انتصاراته الباهرة ·

روى توماس ارنولد فى كتابه : الدعوة الى الاسلام « ان المسيحيين فى بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا الى الاسلام فى جموع هائلة · ويمكن أن نكون فكرة ما عن مدى ذلك التحول المبكر الى الاسلام في العراق مثلا ، اذا علمنا أن ايراد الضرائب فى عهد عمر كان يتراوح بين ١٠٠ مليون و ١٢٠ مليون درهم · على حين هبط فى عهد عبد الملك بن مروان ، أى بعد خمسين عاما الى أربعين مليون درهم ·· وبينما يعزى هذا التدهور فى الخراج الى حد كبير ، الى التخريب الذى كان نتيجة الحروب والفتوحات · فانه ما يزال ينسب أولا

وقبل كل شيء الى هذه الحقيقة ، وهى ان جموعا غفيره من الاهلين كانوا قد دانو بالاسلام ، ومن ثم لم يطالبوا بدفع ضريبة الرأس » .

وينقل هذا المصدر نص رسالة كتبها البطريرك النسطورى يشوع باف الثالث الى رئيس أساقفة فارس جاء فيها : « أين أبناؤك أيها الاب الذى ثكل أبناءه ؟ أين أهل مرد العظماء ، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفا ، ولا نارا ولا تعذيبا ، ولم يسيطر على نفوسهم الا حب التجارة والاخذ منها بنصيب .. لم يتقدم واحد منهم ليهب نفسه ضحية للرب ، ويريق دماءه فى سبيل الدين ... أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جميعها .. ان العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا ، يشاهدون ما أنتم عليه ، وهم بينكم ... ومع ذلك فهم لايحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسسنا ، وقديسى الرب ، ويجودون بالفضل على الكنائس والادبار ...

ويستطرد صاحب الرسالة قائلا :

« لماذا اذن هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل العرب ؟ ولماذا حدث ذلك أيضا فى وقت لم يرغمهم فيه العرب كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم ، على ترك دينهم ، بل تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمنا مصونا ، اذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم اليوم ، (يقصد الجزية) ... »

هذه الوثيقة النادرة تفسر لنا ما حدث بعد ذلك في عهد

obeikandi.com

عمر بن عبد العزيز من الاقبال الهائل على دخول الشعوب الجديدة فى الاسلام من كافة الاديان والمذاهب ٠

والجزية ـ كما نعلم ـ كانت أشبه بضريبة الاعفاء من الخدمة العسكرية ، وكانت على الموسرين ٤٨ درهما فى السنة ، وعلى متوسطى الدخل ٢٤ درهما ، وعلى العمال ١٢ درهما ٠
وكانت هذه الضريبة تجبى من القادرين على الخدمة العسكرية ، فلا تحصل من الصغار أو النساء أو ذوى العاهات أو الطاعنين فى السن أو المرضى حتى يشفوا ٠ كما أعفى منها الرهبان ورجال الدين ٠

ان طابع العنف فى الحركات العسكرية أثناء الغزو ، والعنف فى قمع الثورات ، يقابله عدل وانصاف لكافة الرعايا المسالمين ٠٠ وفى ظل المساواة التامة والحرية الفردية ، كان ينمو هذا التعاطف بين دين الفاتحين وأهل البلاد المفتوحة ٠٠٠

وهذا هو الذى أزعج القس القديم ، ولم يجد له تفسيرا فى وقته ٠٠٠

obeikandi.com

رحيل سليمان..!

كان الوليد قد فكر فى عزل أخيه سليمان من ولاية العهد ، على أن يبايع الناس لابنه يلى الامر من بعده ..

وكاتب امراءه في الامصار ، فوافقه منهم الحجاج وقتيبة بن مسلم .

ولكن الاجل لم يمهله فمات ، وبيعة أخيه سليمان بن عبد الملك بن مروان فى أعناق الناس .

وكان قتيبة واليا على خراسان ، وجيوشه ماضية على وجهها فى الفتوح التى ذكرناها .

وكتب قتيبة الى سليمان كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه فى الوليد ويذكر له بلاءه وطاعته لأبيه وأخيه من بعده . وانه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة ان لم يعزله عن خراسان .

وكانت بين قتيبة ويزيد بن المهلب بن أبى صفرة عداوة شديدة . وخشى ان يعزله سليمان عن خراسان ويولى خصمه . ولذا بعث مع الرسول تهديدا مكتوبا ان هو عزله ، ليخلعن الخليفة كما تخلع النقل وليملأن عليه الأرض خيلا ورجالا .

فلما تأكد للرسول ان خلع صاحبه مؤكد وان خصمه سيتولى مكانه دفع اليه بكتاب القطيعة ..

وثارت فتنة فى معسكر قتيبة . وعملت الدسيسة عملها ، وطمع كثيرون فى جائزة ينالونها اذا هم قتلوه .. وقد كان ، وقتل قتيبة ومعه اخوته عبد الرحمن وعبدالله وصالح وحصين

وعبد الكريم بنو مسلم ، وقتل ابنه كثير بن قتيبة ٠ كما قتل ناس من أهل بيته ٠٠ وصلبهم رجال الخليفة سليمان ٠

وهكذا انتهت حياة هذا القائد الباسل ، الذى يعد من أعظم قواد المسلمين ، والذى يمكن أن يوضـــع فى صف واحد مع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص ٠٠ لم يشفع له ما قدمه من خير للدولة وللمســــلمين ٠٠ فان السياسة لا ترحم ٠

وحملت رؤوس المصلوبين من آل قتيبة الى الخليفة سليمان ٠

وعندما تسامع أهل خراسان واذربيجان وأزبكستان بمصرع قتيبة على أيدى قومه ، قال واحد من قوادهم :

« يا معشر العرب ٠٠ قتلتم قتيبة ٠٠ والله لو كان قتيبة منا فمات فينا ، جعلناه فى تابوت ، فكنا نستفتح به اذا غزونا ٠٠ وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة ٠٠ »

ولم يدرك سليمان الحجاج ، والا كان له نفس المصير ٠٠

ولكن سليمان استقدم يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ، وهو مكبل بالحديد ، فلما رآه آزدراه وقال له :

ــ ما رأيت كاليوم قط ، لعن الله رجلا أجـــرك رسنه ، وحكمك فى أمره (يقصد الحجاج) ٠٠ فرد الكاتب ٠

ــ لا تفعل يا أمير المؤمنين ٠ فانك رأيتنى والامر عنى مدبر ، وعليك مقبل ، ولو رأيتنى والامر مقبل على لاستعظمت منى ما استصغرت ٠ ولاستجللت منى مااستحقرت ٠ قال :

ــ صدقت فأجلس لا أم لك ٠

فلما جلس الرجل قال له سليمان :

ــ عزمت عليك لتخبرنى عن الحجاج ما ظنـــك به ٠ أتراه

يهوى بعد فى جهنم أم قد استقر فيها .. قال الرجل :

ـ يا أمير المؤمنين .. لا تقل هذا فى الحجاج ، فقد بذل لكم نعمه . وأحقن دونكم دمه . وأمن وليكم .وأخاف عدوكم . وانه يوم القيامة لعن يمين أبيك عبد الملك ويسار ، أخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت .

فصاح سليمان :

ـ أخرج عنى الى لعنة الله

ثم التفت الخليفة سليمان الى جلسائه فقال :

ـ قبحه الله !! ما كان أحسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه . ولقد أحسن المكافأة .. أطلقوا سبيله .

وكذلك نكل سليمان بالقائد الشاب محمد بن القاسم الذى فتح السند .. فقد عزله ، وأمر به فكبل فى الحديد ، وحمل الى العراق ، حيث زج به فى سجن واسط ، وحل به أشد العذاب وقتل بعد ذلك ..

وما تهمة هذا القائد الشجاع الا أنه كان ابن أخت الحجاج .

وسنرى فى كتابنا عن طارق بن زياد ما فعل سليمان بموسى بن نصير ..

والحسنة التى تذكر لسليمان بن عبد الملك أنه حاول فتح القسطنطينية وفى هذا يقول كتاب تاريخ الاسلام السياسى .

كان الوليد قد شرع فى ارسال حملة الى القسطنطينية للاستيلاء عليها ، لكنه توفى قبل قيام هذه الحملة . فلما ولى أخوه سليمان الخلافة ، وجه هذه الحملة ، ورابط فى مرج دابق شمالى الشام . وكان على الدولة البيزنطية الامبراطور

انستاسياس الثانى . فدافع عن حاضره ملكة بكل ما أوتى من قوة وأرسل حملة الى الثغور الشامية لتحول دون وصول الاقوات والمؤن الى جند المسلمين ، ولكنها عادت بالفشل .

وقد انضم الى جيش المسلمين فى آسيا الصغرى رجل من البيزنطيين كان يطمع في الملك ، ويدعى ليو الاشورى ، اتحد مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان أمير هذه الحملة . ومن ثم أخذ جند المسلمين يستولون على بلاد آسيا الصغرى ، مدينة تلو مدينة حتى عبروا البحر ووصلوا الى أسوار القسطنطينية وتبعهم الاسطول الاسلامى من الثغور الشامية والمصرية . فاشترك في حصار حاضرة البيزنطيين . غير أن « ليو » هذا خرج على صفوف المسلمين ، وأعلن نفسه أمبراطورا بدلا من انستاسياس الذى كان مكروها عند الأهلين .

واشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر . وعاجمها أسطولهم .. فعمل « ليو » على استدراج سفن المسلمين . ففتكت بها النار الاغريقية ، ونفدت أقواتهم ، فتحملوا آلام الجوع والمرض ، حتى فنى أكثرهم بعد أن دمرت أكثر سفنهم ، وعادت الحملة تجر ذيل الفشل ، كما فشلت الحملة التى سبقتها فى عهد معاوية ..

والنار الاغريقية التي ورد ذكرها هنا ، هى سائل كيماوى يعتمد على مادة النفط ، يلقى فى الماء وتشتعل فيه النار فيحول سطح البحر الى ما يشبه الاتون المتقد ..

ومن عجب ، أن الالمان لجأوا الى هذا الاسلوب لعرقلة انسحاب الانجليز من دنكرك في الحرب العالمية الماضية . فقد

كانت طائراتهم تفرغ على الماء حمولتها من البنزين والكيروسين وتطلق عليها الرصاص المشتعل فيتحول سطح البحر الى بحيرة من اللهب ·· ولا نجاة من هذا الحصـــار النـــارى الا بسرعة الحركة ·· ولم تكن سرعة الحركة متاحة فى المراكب الشراعية القديمة ، ولذا دمر الاسطول الاسلامى فى هذه الموقعة ··

وهكذا نراها لسليمان حسنة غير كاملة ·· ان مجرد النية فى فتح القسطنطينية هو ما يحسب له · ولكن كانت تنقصه كفاءة القيادة فى مثل هذه المهمة ·

وأين تأتى القيـــادة من رجل نكل بكل من خدموا دولتهم لمجرد أنهم استجابوا لرغبة الخليفة الذى سبقه ، والذى كان ولى أمرهم ·· وكان نكاله شديدا بالغ القسوة ·

ولكن هناك مأثرة تذكر لسليمان لا شك فيهـــا ، وهى ما سوف تحدثنا عنه الصفحات التالية ··

انها السرعة التى انقضى بها حـكم سليمان ، اذ لم يمكث أكثر من عامين ، وترك الحكم ـ لا لأحد أولاده ـ ولكن للخليفة ـ التقى النقى عمر بن العزيز ··

obeikandi.com